■ الباب السادس ■

بداية أسرة «النظام» ونهاية حياته

نشوء أسرة «النظام» والاختلاف بين أبنائه.

خاتمة المطاف فى حياته.

الملاحق فى البحث: مراسيم استيزاره.

مناشير تعيين إقطاع وقضاء فى عهده.

رسائله وأماليه فى الحديث.

مواعظ ونصائح تأثّر بها.

obeikandl.com

obeikandl.com

● الفصل الأول

بداية أسرة «النظام»

أثر الأسرة فى أفرادها وفى المجتمع.
ما أنجبه «النظام» من بنين وبنات وأحفاد.
تكالب الأبناء على المناصب الوزارية
وغيرها، أثرها فى حياة «النظام».

obeikandl.com

obeikandl.com

بداية أسرة «النظام» :

إن ما بين الأبناء والآباء من وشائج دموية ومؤثرات بيئية تجعل من كل منهم مرآة تعكس صورة الآخر إلى حد كبير، لأن فى وجهة نظر الأبناء ما يدل على فلسفة الآباء وفهمهم للحياة، ولأن الأسرة هى المجتمع الصغير الذى تتفاعل حياة أفراده وتلعب دورًا مهمّا فى تكوين الناشئ من حيث صحته النفسية والمزاجية والفكرية. ففى غضون مايحدث بينهما من تقليد وإيحاء ومشاركة وجدانية تتكون لغة الفرد وعاداته وتقاليده، ومُثُلُه وعقائده، وعن طريق احتكاكه بغيره وما يلقاه من سخط ورضا ولين وشدة تتكون عواطفه وميوله ونزعاته وبمقدار ما يصيب أسرته من فقر أو غنى، ومعرفة وجهالة وسعادة وشقاء يأخذ نصيبه من خير أو شر.

لهذا كانت دراسة الأسرة والوقوف عند سَيرْ الأبناء والأحفاد، والتعرف إلى ما يتمتعون به من مكانة فى المجتمع يضفى على الآباء نورًا جديدًا يكشف عن كثير من أسرار حياتهم الغامضة من ناحية ودقة الحكم الصادر لهم أو عليهم من ناحية أخرى.. ولذلك كان لزامًا علينا أن نقف ـ ولو قليلاً ـ عند أسرة «النظام» لنتبين مدى تأثره وأثره فى أعضائها.

لم يعرفنا التاريخ عن أسرة ـ «النظام» ـ شيئًا ذا بال قبل جده إسحاق، ولم يخبرنا من أين نزحت قبل هذا ومتى استوطنت طوس؟.. وكلّما وصلنا من أحوالها مقتبسات عن أبيه عليّ وجده إسحق لا تزيد على أن هذا كان دهقانًا ومن قرية ـ أنكو ـ التى عمرت بفضل ديانته وأمانته، وأن قلوب السكان كانت فرحة مستبشرة بوجوده.. وقد خلّف من الأولاد أربعة: أولهم وأفضلهم

ـ أبو الحسن علىّ بن إسحاق ـ والد «النظام»، ثم أحمد ومحمد وأبو نصر إخوته وهذا الأخير توفى وهو صغير[١]. وما وردنا عن أبيه لا يتجاوز وراثته الدهقنة، وأنه اشتغل بالخراج عدة سنوات ثم أخفق فى وظيفته واستدان لتسديد عجز مالى طلب إليه، وقد أشرنا لذلك فى موضعه. غير أن ـ ابن فندق ـ وهو من خيرة الكاتبين عن أسرة «النظام» وأفضلهم معرفة بها، ومن مواليد أواخر القرن الخامس الهجرى[٢] عدّه من أعاظم الذين نشأوا فى ناحية بيهق.

وكان للوالد ـ كما تحكى الروايات ثلاثة أبناء هم: أبو على نظام الملك، وأبو القاسم عبد اللّه[٤] وأبو نصر إسماعيل، اشتهروا بالتدين والتفقه والصلاح. أمّا أبناء وزيرنا «النظام» ـ فالغموض يكشف عددهم والاختلاف يشمل أسماءهم: فقد وردنا على لسان ـ تركان خاتون ـ وهى تردّد على مسامع السلطان استبداد ـ «النظام» ـ بالحكم واستئثار أبنائه فى الولايات والملك أنهم اثنا عشر كالأئمة الاثنى عشر عند الشيعة ـ ولكننا عندما نرجع إلى المصادر التى عنيت بذلك وندقّق ونقارن بينها لا نجد من أسمائهم سوى تسعة فقط، بينما ذكرت دائرة المعارف الإسلامية أسماء خمسة منهم[٥]، وأوصلها «زامباور» إلى عشرة[٦].

أمّا بناته فقد ذكر له ـ ابن فندق منهن أربع وأثبت أسماء أزواجهن، ولكنه

---

(١) ابن فندق ـ تاريخ بيهق ص ٧٣.

(٢) بيهق وتميمى سيزوار سابقًا ومؤلف تاريخها ـ ابن فندق ـ ولد سنة ٤٩٠هـ.

(٣) تاريخ بيهق ص ٢١٥.

(٤) درس فى نيسابور العلوم وحضر مجالس الحديث وسمع ولم يشارك أخاه فى شئون الدولة إلى أن توفى سنة ٤٩٩هـ=١١٠٦م. السبكى جـ ٣ ص ٢٠٦ وابنه «النظام» هذا ولد على شاكلته علمًا وزهدًا هو عبد الرزاق بن عبد اللّه وزر لنجر وترك طريقة الفقهاء واشتغل بالجند وتدبير الملك. توفى سنة ٥١٥هـ. (المنتظم جـ ٩ ص ٢٢٩، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٢٢).

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة نظام الملك جـ ٣ ص ٩٣٥.

(٦) معجم الأسرات الحاكمة ـ ترجمة زكى حسن.

أغفل أسماءهن[١] ولم يشر إلى زوجة ـ عميد الدولة بن جهير ـ وزير الخليفة العباسى والتى عرف اسمها ـ صفية ـ ببقاء بيتين من الشعر قالهما ابن الهيّارية فى هجائه عند عودته للوزارة[٢]: والذى يظهر أنه كان «للنظام» أكثر من خمس بنات أيضًا، تكون سادستهن التى كانت فى عصمة ـ أبو الهيجاء مقاتل بن عطية ـ الأمير الحجازى الذى رثى «النظام» ببيتيه المشهورين اللذين لا تخلو منهما ترجمة له[٣]، وسابعة كان قد تزوجها سيد الرؤساء أبو المحاسن محمد نديم السلطان ملكشاه وصاحب سرّه والذى تآمر على «النظام» طمعًا فى منصبه[٤]. . وإذا صحّ ما قاله السبط بن الجوزى بأن الوزير ابن جهير ـ السالف الذكر قد تزوج من أخت زوجته بعد وفاتها[٥] يكون حينئذٍ «للنظام» من البنات ثمانية، ويكون اسم الأولى ـ زبيدة.

إن هذا العدد الوفير من البنين والبنات يدلنا على مدى الخصب وغزارة الإنجاب وسلامة البنية الجسمية الأمر الذى يستلزم ـ عادة ـ تعدّد الزيجات مع أننا لا نجد بين كتّاب الفرس والعرب وغيرهم من حدّثنا عن زوجاته وأين ومتى تزوج؟ غير أن الصفحات الأولى من سيرته تشير إلى أنه حينما هرب من ـ أبى على أحمد بن شاذان ـ فى بلخ إلى ـ جغرى بك داود ـ فى مرو قد أخفى ولديه ـ فخر الملك ومؤيد الملك[٦]. فلابد أن يكون قد تزوج قبل ذلك بمدة وأنجب هذين. . وربما كان من زوجة له يصحّ أن نظنها الأولى حيث يذكر له ـ العماد الأصبهانى ـ زواجًا آخر بعد هذه الفترة من تاريخ حياته، وذلك عندما أوغل السلطان ـ ألب أرسلان ـ فى بلاد الخزر ـ كورجيا ـ سنة ٤٥٧هـ

(١) ابن فندق ـ تاريخ بيهق.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٣٥.

(٣) ولدت سنة ٤٦٢هـ وتوفيت سنة ٤٧٠هـ، (ابن الجوزى جـ ٨ ص ٢١٧، وابن الأثير جـ ١ ص ٢٤٠، والفخرى).

(٤) انظر: ص ٤٦٨ من البحث.

(٥) سبط بن الجوزى ـ حوادث سنة ٤٧٦هـ ـ ابن خلكان جـ ٢/ ٤٨٤، والواقى، والمخطوطة ـ باريس.

(٦) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٨٦ ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(١٠٧٤م) فوصل إلى ابخاز بالقرب من طيس فى إقليم أرمينية وأخضع ملكها ـ بقراط بن كيوركى ـ فقدم له هذا ابنته رمزًا للإطاعة والولاء، وطلب مهادنته فتزوج بها السلطان ثم طلّق ـ الملكة الكورجية هذه ـ بعد قليل وزوجها لوزيره «النظام»[١]. . وهى التى يجوز أن نطلق عليها الثانية التى أنجب بقية أولاده منها، وإن لم يكونوا جميعهم. ولم نعرف شيئًا آخر عن حياة «النظام» الزوجية، وإنما انطوى سجلها على هذه الصفحة من سيرته وترك عليها شارات الاستفهام فضلاً عن عددها من أسئلة: فهل أحبّ مثلاً كما يحبّ الرجال؟ وهل كانت زوجته الأولى؟ ومن هى؟ ومتى توفيت؟ أو أن الثانية هى التى حظيت بحبّه؟

لم يكن «النظام» من أولئك الذين يركنون إلى الحبّ الجنسى ـ كما نظن إذ لم يكن هذا اللون من الحبّ متاغًا فى أوساط رجال الدين ومشاهير الساسة آنذاك. لذا لم يؤثر عن هؤلاء أنهم تزوجوا عن حبّ فهو بنظرهم هوى ومجون خليق بالأدباء والشعراء وذوى الأخيلة والأحلام. أمّا المؤمنون بزيف الدنيا ،المعتقدون بعالم الواقع فإنهم بعيدون كل البعد عن تلك النزوات العاطفية الزائلة، وعند «النظام» من الأعمال ما يملأ أوقات فراغه إن كان لديه فراغ وله فى الآراء والأفكار ما يشغل ذهنه وقلبه عن مجالسة النساء والإصغاء إلى أحاديثهن. . ولهذا لا نعتقد بزوجة له ثالثة كما نميل إلى أنه تزوج بالثانية بعد وفاة الأولى، وأن زواجه منهما ليس عن سابق معرفة بهما أو بدافع حبّ غريزى لهما، وكيف يكون كذلك وهو الذى يرى أنه: ماكنت دار أُمِّرت فيها سيدتان![٢]

ومهما يكن من أمر زوجاته فقد رزق عددًا لايزيد عن عشر بنين وصلتنا أسماؤهم ونبذ متفرقة عن سير معظمهم، وأن خمسة منهم بلغوا أعلى مناصب

(١) آل سلجوق ص ٢٠، والكامل جـ ١٠ ص ١١٩ ـ حوادث سنة ٤٩٤هـ.
(٢) سياستنامة ف ٤٢ ص ١٢٠ ترجمة.

الدولة، ومنها الوزارة فقد خصّ الأمير ـ أحمد أبو نصر ـ بوزارة الخليفة المسترشد باللّه[1]، ثم السلطان محمد بن ملكشاه، والأمير فخر الملك بوزارة السلطانين بركيارق وسنجر، والأمير عماد الملك بوزارة الملك بورى برسى بن ألب أرسلان ـ والأمير مؤيد الملك بوزارة السلطان محمد.. حتى قيل فيه وفيهم[2]:

يا وزير بن وزير بن وزير نسقا كالدر فى نظم النحور
كلكم بين أمير ووزير ربّ ديوان وقصر وسرير

* * *

(١) الفخرى ص ٢٧٣.

(٢) ابن فندق ـ تاريخ بيهق ص ٧٤، وانظر كذلك: حيث ورد إليت الأول فقط فى مناسبة أخرى مع اختلاف يسير.

obeikandl.com

أسرة «نظام الملك» الوزير

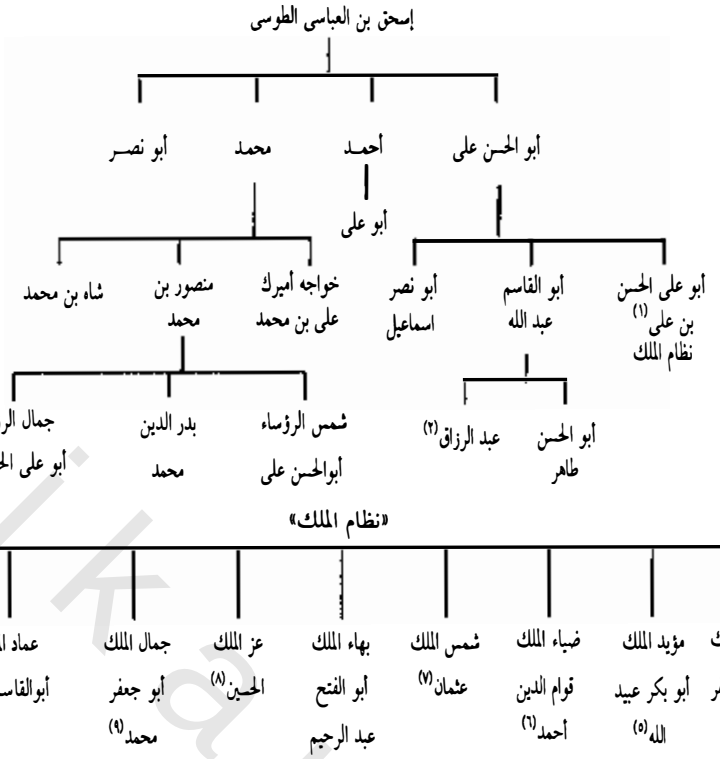

(١) فى معجم الأسرات الحاكمة لزامباور: أبو محمد الحسن الدهستانى.

(٢) هو أبو المحاسن عبد الرزاق شهاب الإسلام وزر لسنجر من ٥١٣-٥١٥هـ وتوفى سنة ٥١٥هـ.

(٣)

(٤) سمى الفتح والمظفر وقيل هو على أيضاً أكبر أولاد «النظام» ولد سنة ٤٣٤هـ، كما ذكر زامباور وقد اغتاله باطنى بمثل الطريقة التى اغتيل بها والده حيث خرج من حجرته وسمع صوت متظلم فقال «أدنوه منى»، وبينما هو يتأمل رقعته ضربه بسكين سنة ٥٠٠هـ وهو يومئذٍ وزير لسنجر بن ملكشاه فى نيسابور وكان من قبل وزيراً لبركيارق.

(المنتظم جـ ٩ ص ١٤٨، والكامل جـ ١٠ ص ١٧٥).

(٥) وزر لمحمود بن ملكشاه ما بين سنة ٤٨٦هـ، ٤٨٧هـ.

(٦) وزر لمحمد بن ملكشاه من سنة ٥٠٠-٥٠٤هـ.

(٧) كان حاكماً لمرو.

(٨) كان وزيراً لبركيارق وتوفى سنة ٤٨٧هـ.

(٩) مات مسموماً عام ٤٧٥هـ.

(١٠) كان وزيراً لأرسلان أرغون بخراسان سنة ٤٨٥هـ - ٤٩٠هـ.

وفى ظل حكم أرستقراطى ومجتمع وراثى طبقى عماده المال والمنصب ـ ولا شىء غير هذا- يمكن أن يكون آنذاك ـ لابد وأن تنشأ أسرات تتوارث مناصب الدولة، وأن يكون أبناء الوزراء من أرقى الطبقات منزلة وجاهاً[١]. فتظهر فى وزارة خلفاء ـ بنى العباس أسرة البرامكة ـ وبنو الفرات وبنو وهب وآل خاقان وآل المهلبى[٢]. . أمّا وزراء السلاطين فقد ظهرت فيهم أسرة ابن العميد[٣] وأسرة «نظام الملك» الوزير.

وكان من مساوئ النظام الأسرى والموروث أن صار يستولى على الوزارة الأحداث والمبذرون من أبناء الوزراء السابقين فقد وليها للسلطان ركن الدولة أبو الفتح بن العميد بعد وفاة أبيه وله من العمر إحدى وعشرون[٤] سنة، وكانت نهايته من مآسى الوزراء حيث قبض عليه السلطان عضد الدولة البويهى فسمل عينيه وقطع أنفه[٥].

ليس من شك من أن «النظام» كأى أب آخر يحمل من الشفقة والعطف مما يحمل الآباء نحو أبنائهم فضلاً عن بُعد نظره واعتقاده بأفضلية قاعدة التوريث فى الوزارة قياسًا على منصب الخلافة والسلطنة. . كان يعدّ أبناءه لهذا المنصب وغيره من مراكز الدولة المهمّة ويختار لهم الأساتذة فى مختلف العلوم وقد عرفنا منهم ـ سليمان بن عبد الله[٦]. وكان يحثّهم على الدراسة والاطلاع ومجالسة

(١) آدم ميتز ـ الحضارة الإسلامية ص ١٦٦، ٢٠١ عن المنتظم.

(٢) فقد تولى من البرامكة أربعة وزراء فى خمسين عاماً وقد استوزر من آل خاقان أربعة فى سبعين عاماً، وكذلك تولى من آل وهب أربعة. (آدم ميتز ص ١٢٦).

(٣) وكان وزيراً لعماد الدولة رأس أسرة بنى بويه ومؤسس مملكتهم، وكان ابنه وحفيده وزيرين لركن الدولة . (آدم ميتز – الحضارة الاسلامية ص ١٥٠).

(٤) آدم ميتز – الحضارة الاسلامية ص ١٤٩، ١٥٣ عن ابن الأثير.

(٥) المصدر السابق.

(٦) وفى الذهبى – تاريخ الاسلام «سليمان بن عبد الله أبى طالب محمد النهروانى ثم الأصبهانى ويعرف بابن الفتى» وكان رأساً فى اللغة والنحو وله كتاب ـ القانون ـ فى عشر مجلدات فى اللغة والتفسير، وتخرج به أدباء أصبهان. توفى وقد شاخ فى سنة ٤٩٣هـ (الذهبى – تاريخ الإسلام جـ ١٢ وابن عساكر – التبيين ص ٣١٨- ٣٢٠).

العلماء ولكنه لم يستطع أن يجنّبهم حياة الترف والدعة ويبعدهم عن العيشة الرخية الفاترة ويصل بهم إلى الدرجة التى كان هو عليها من الخبرة فى الأمور السياسية وتدبير الملك، حيث بدأ الصراع بين الأخوة على منصب الوزارة الذى خشى من مخاطره عليهم، ودبّ الشقاق والتناحر من أجله بحيث يتنكر أحدهم للآخر ويتآمر عليه من أجله فيستوزر أحدهم لسلطان وآخر لأخيه الخارج عليه ويقود كل منهما جيش صاحبه لقتال شقيقه وسلطانه معًا حتى يقضى أحدهما على الآخر[1]. وبذلك كان مصير أكثرهم القتل إمّا على يد سلاطينهم أو الباطنية بإيعاز منهم.

وعلى الرغم من عجزهم عن مواصلة سيرة أبيهم وتمثيل دوره فى مرافق الحياة العامة فقد بقى أعضاء هذه الأسرة يتوارثون المناصب وينالون الحظوة فى تقريب الخلفاء وتقديم السلاطين واحترام سائر الطبقات قرابة قرن من الزمان بعد اغتيال أبيهم «النظام». ففى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى نجد أحفاده منتشرين فى أنحاء بلاد إيران والعراق. ففى طوس نصير الدين أبو الفضل نصر بن أحمد، وفى بغداد نظام الدين أبو الحسن على بن أحمد وأخوه شهاب الدين محمد بن أحمد، وفى أصبهان ظهير الدين أبو الحسن على بن عثمان وأبو الفتح محمد بن صدر الدين أبو الحسن على بن فخر الملك وإخوته: أبو بكر وأبو المفاخر عثمان وعلاء الدين أحمد وكمال الدين يوسف، وفى هراة: علاء الدين أبو على الحسن بن مسعود بن مؤيد الملك، وفى جوين: مسعود ومحمد ابنا إبراهيم بن جمال الملك، وفى سبزوار: ظهير الدين أبو سعد ابن أحمد بن جمال الملك. وفى الشادياخ من أولاد جمال الملك صدر الدين مسعود وأخوه تاج الدين محمود أبناء علاء الدين محمد[2]..

(١) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٠٤-١٠٨ ـ حوادث سنة ٤٨٨هـ، ٤٩٠هـ، وابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٦٢.

(٢) ابن فندق - تاريخ بيهق ص ٧٧ ، ٧٨.

وجميع هؤلاء كما تشير ألقابهم وسير حياتهم، أنهم قد احتلوا مكانة رفيعة فى المجتمع ومنزلة راقية فى نفوس الحكام ومراكز الحكم إذ شملهم «النظام» بحسن سمعته وأحاطهم بهالة من عاطر ذكره وطيب صنيعه.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com